المجالات الدلالية في القرآن الكريم
كتاب الموت إنموذجاً
دراسة في أشكال الخطاب القرآني

أ. أحمد عبد الجبار القيسي
المعهد العالي لإعداد المعلمين بزليتن

أولاً. القسم النظري (النص والنظرية المقاربة)

أ . النص

النص القرآني بنية[1] مفتوحة ومغلقة في آن واحد، مفتوحة بمعنى أنها تنمو وتتكامل شيئاً فشيئاً، ولا أقصد هنا النمو والتكامل المكاني المكتوب أو الملفوظ، فهذا التشكل انتهى بنزول آخر آية من القرآن الكريم، ولكني أعني هنا التشكل الزمني

[1] أقصد بالبنية هنا، المفهوم المتعارف عليه في أوساط الدراسات البنيوية، والتي تعد النص وحدة متكاملة تتشكل من عناصر تمثل الكل ولا يمكن فهم الكل إلا من خلال مجموع العناصر المشكلة له، ولا يكتسب الجزء دلالته إلا من خلال الكل وعلاقاته داخل البنية الواحدة.

المتعلق بالدلالة، فدلالة النص القرآني لا تتوقف عن النمو والتكامل والتجدد، وربما التبدل حيناً آخر.

منذ نزول أول كلمة من القرآن الكريم تحددت سمته الأساسية في ضوء دلالة الكلمات الأولى هذه، حين قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:1 . 5)، فالقراءة والعلم هما خصيصتان متلازمتان للقرآن الكريم تحدد في ضوئها سمة القرائية والعلمية المتلازمة له.

والقرآن منذ زمن نزول تلك الكلمات يقرأ مرات ومرات وبأشكال مختلفة من القراءات، وفي كل مرة يقرأ فيها تتجدد فيه دلالة الكلمات والآيات والسور وتتفتح على زمانها ومكانها.

هذا التجدد في الدلالة قد يتخذ مسار تكامل في مفهوم دلالة معينة بحيث يتواصل المعنى مع القراءات السابقة، وربما كان التجدد الدلالي تبدلا في المعنى وإنتاجاً لمعنى آخر قد يصل حد التضاد والصدام مع المعنى القديم المقروء من قبل قراء آخرين في غير زمان ومكان القراءة الأخرى المضادة لها.

إن النص القرآني لا يتوقف عن إنتاج دلالاته وبحسب علم القارئ وزمانه ومكانه.هذا التحليل لسمة القراءة في النص القرآني يوضح لنا سبب كون الآية الأولى بل الكلمة الأولى من القرآن تأمر بالقراءة لا الاستماع الذي ورد في آيات أخرى بعد هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:204) على الرغم من كونه نصاً شفاهياً في أول نزوله، ذلك لتتوضح قصدته كونه مكتوباً مقروءاً لا مسموعاً فقط، ليحقق فعل القراءة فاعليته في استخراج الدلالات و إنتاجها.

هذه السمة الأساسية للقرآن جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه: (لا تشبع منه العلماء، ولا يمله الاتقياء ولا يخلق على كثرة الرد)[2] وكثرة الرد هنا مقصود بها تكرار القراءة لاستنطاق البنية المفتوحة المتطورة والمتشكلة دلاليا مع الزمن إلى يوم القيامة.

[2] سنن الترمذي: (2906).

هذا الانفتاح في البناء الخارجي للقرآن سمة لبنائه الداخلي البنيوي، بمعنى أن الموضوع الواحد يتكامل من سورة إلى أخرى حتى يشكل ما أسماه القرآن الكريم (الكتاب) بوصفه مصطلحاً دالاً على موضوع متكامل مترابط الأجزاء لا يفهم إلا بكله، يقول تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة: 2 .3)، فلكل موضوع من موضوعات القرآن كتاب خاص يتشكل من الألفاظ والآيات الخاصة به والدلالات المتصلة به والدالة عليه، و(كتاب الموت) أحد هذه الكتب التي يضمها القرآن الكريم والذي نحاول هنا مقاربته من أحد جوانبه الدلالية المتنوعة.

هذا الانفتاح في البناء الخارجي والداخلي للقرآن الكريم يضم إليه خاصية ثالثة تتصل بالبناء الخارجي له ألا وهي أن النص القرآني يتجلى في كونه خطابا موجها للآخر المتلقي المخاطب بما فيه.

أي أن النص القرآني مع كونه معجزا بلغته . وهي سمة تتبع من الخصيصتين السابقتين لبنائه الخارجي الدلالي والداخلي التكاملي . فإن سمة الأعجاز هذه ليست مقصودة لذاتها و إنما لتكون طريقاً للوصول للمخاطب و إقناعه بما في القرآن الكريم من عقائد وسلوكيات أخلاقية وتوجيهات دعوية، آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

هذا التركيز والانفتاح على المخاطب لم يمنع النص القرآني أن يكون في أعلى مستوى من البلاغة واللغة العالية المعجزة كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:23).

أي أن النص القرآني بمعنى آخر مع تركيزه على الوظيفة الإفهامية connotive function للنص حسب مخطط ياكسبون لوظائف اللغة، إلا إنه لم يغفل أبداً الوظيفة الإنشائيةpoetic function حين يكون النص هو الأساس والغاية من الدراسة والإنشاء هذا المزج بين الوظيفتين أحد اوجه الإعجاز التي قصرت عنها النصوص الأخرى على اختلافها والتي تركز حسب نوعها على وظيفة دون الأخرى أو تمزج بين عدة وظائف بشكل غير متساو.[3]

[3] ينظر حول وظائف اللغة عند ياكبسون، الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب ليبيا . تونس (1977): 154. 156.

ومن تلازم هاتين الوظيفتين . الإفهامية والإنشائية . يمكن دراسة أي موضوع في القرآن الكريم، بعده نصا لغويا معجزا وموجها إلى مخاطب، وإن كنا في هذا البحث سنركز في تحليلنا على الوظيفة الإنشائية الأدبية حسب مقتضيات البحث ومنهجية الدراسة.

هذه الخصائص الثلاث تمثل سمة الانفتاح في النص القرآني أما سمة الانغلاق في النص نفسه، التي تبدو على تضاد مع سمة الانفتاح، فأعني بها إن البنية القرآنية متكاملة ذاتيا لا تحتاج إلى مرجعيات خارجة عنها لفهم دلالاتها الأساسية المطلوبة من كل مسلم. هذه المرجعيات التي قد تفرض على النص القرآني دلالة غير مقصودة وربما مغلوطة، كما حدث مع بعض الفرق الإسلامية، في بعض الأحيان.

إن المرجع الوحيد الذي يمكن الرجوع إليه بشكل مطلق في تحديد دلالة الخطاب القرآني وتأويله هو سنة رسول الله ﷺ. وهذا المرجع، وإن كان خارجا عن بنية النص باعتبار الكلمات والحروف، إلا إنه يعد جزءا من التشكل الدلالي لبنية النص القرآني، يوضح هذه البنية ويفسرها، قولا وعملا، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (لنجم:3)، وقوله في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:44).

لنتأكد أن سنة رسول الله ﷺ وظيفتها ومرجعيتها المتصلة بالنص القرآني تتبع من بنية النص نفسها بعدها مفسرة وموضحة لدلالته، وكل ما عدا هذا المرجع يعد خارجا عن النص ليس ملزما في تأويل دلالات القرآن واستنباط معانيه.

هذا ما يتعلق بسمات النص المدروس وخصائصه، هذه السمات والخصائص التي تجعل منه نصا قابلا للدرس وفق منهجيات مختلفة، منها الحديث نسبياً كما نفعل في هذا البحث لعلنا نشر إلى شيء لم يشر إليه الأقدمون رحمهم الله جميعا.

ب . النظرية

تعتمد هذه الدراسة في إجراءاتها المنهجية وتقسيمها على نظرية الحقول الدلالية Semantic fields وهي من منجزات علم اللغة الحديث من بعد سوسير

ومحاضراته التي قلبت كثيرا من التصورات حول مفاهيم اللغة والكلام واللفظ والمعنى وغير ذلك من ثنائيات التفكير اللغوي الحديث.[4]

ينطلق مفهوم الحقل الدلالي أو المجال الدلالي من مقدمة أولية تعتقد أن ألفاظ اللغات في العالم تنتمي إلى مجالات دلالية متنوعة بحسب دلالة اللفظ وارتباطه مع مجموعة ألفاظ أخرى تمثل حقلا دلاليا واحدا. كما أننا لا نستطيع معرفة الدلالة الحقيقية للكلمة إلا من خلال مجموعة الكلمات المتصلة بها دلاليا (بمعنى أنه لا يمكن الوصول إلى تحديد واضح ودقيق (نسبيا) لدلالة كلمة ما بمعزل عن مجموعتها الدلالية، فمعنى الكلمة يتحدد على أساس علاقتها بالكلمات الأخرى الواقعة في مجالها الدلالي)، [5] وعلى هذا الأساس يعرف الحقل الدلالي بأنه (مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية فهي تقع تحت المصطلح العام (لون) وتضم ألفاظ مثل: (أحمر، أزرق، أصفر، أخضر)[6] ومن خلال جمع كل الكلمات التي تخص حقلا دلاليا معينا ودراسة العلاقات التي تتشكل فيما بينها وصلتها بالمصطلح العام الذي يجمعها يمكن الوصول إلى تحقيق تصور شامل ومتكامل نسبيا عن الموضوع المدروس.[7]

ويؤكد أصحاب النظرية على أهمية السياق في الكشف عن دلالة الكلمة والعلاقات التي تربطها بغيرها من كلمات المجال الدلالي. كما إن الكلمات في داخل المجال الدلالي الواحد ليست ذات وضع متساو، فيجب التفريق بين الكلمات الأساسية والهامشية، لأن معرفة الأولى يجعلنا نكتشف طبيعة العلاقات والتقابلات التي تربط كلمات المجال الدلالي.

والمعيار المتبع هنا في معرفة الكلمات الأساسية هو معيار التردد والتنوع الدلالي الكبير للكلمات الأساسية بحيث تصبح الكلمة الأساسية وفق هذا التردد الكبير والتنوع الدلالي المتصل بالموضوع أكثر إلتصاقا بماهية الموضوع ودلالاته العامة. هذا المعيار جعل البحث يركز على دراسة الكلمات الأساسية في المحاور المختلفة دون

---

(4) ينظر مبادئ اللسانيات، الدكتور أحمد محمد قدور دار الفكر المعاصر، بيروت (1999): 18. 20.

(5) مدخل الى علم اللغة:74.

(6) علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، جامعة الكويت (1982): 79.

(7) نفسه: 80.

الهامشية اختصارا لحجم البحث ولأنها تكشف عن خصائص المحور الذي تنتمي له وتوضح سمة الكلمات التي يجمعها المحور.[8]

أما العلاقات التي تربط كلمات المحور الدلالي فتنقسم على خمسة أشكال[9]:

أ- **الترادف:** ويتحقق حين يوجد تضمن من الجانبين، إذ يكون (أ) و(ب) مترادفين إذا كان (أ) يتضمن (ب) و(ب) يتضمن (أ)، كما في كلمة أم ووالده، هذا الترادف بشكله التام الكامل لم يتحقق في (كتاب الموت) القرآني بل يجزم الباحث أنه لا يتحقق في القرآن كله، وإنما المتحقق منه هو الترادف الناقص الذي تكون الألفاظ فيه متشابهة دلاليا. في نواح ومختلفة في نواح أخرى.

ب- **الاشتمال:** وهي من أهم العلاقات داخل المجال الدلالي. والاشتمال يختلف عن الترادف في أنه تضمن من طرف واحد. إذ يكون (أ) مشتملا على (ب) حين يكون (ب) أعلى في التقسيم التصنيفي مثل (فرس) الذي ينتمي إلى فصيلة أعلى (حيوان)، وعلى هذا فمعنى فرس يتضمن معنى حيوان.

ت- **الجزئية:** وهي علاقة الجزء بالكل في المجموعة الدلالية الواحدة كألفاظ أعضاء الإنسان في العربية وتقسيماتها.

ث- **التضاد** أو **التقابل:** هناك أنواع متعددة من التقابل ترد تحت ماسماه اللغويون التضاد، كالتضاد الحاد من مثل ميت وحي، والتضاد المتدرج من مثل الجو دافيء، الجو معتدل والتي تقع بين كلمتين هي الجو حار والجو بارد، وغير ذلك من أنواع التضاد.

ج- **التنافر:** وهو ان تكون الكلمة متعارضة مع كلمة أخرى، بمعنى كون إثبات شيء معين نفيا للأشياء الأخرى داخل المجموعة الدلالية، مثل العلاقة بين فرس وقط وكلب.

هذه العلاقات المشكلة للتقابلات داخل المجاميع الدلالية الممثلة لكتاب الموت القرآني، نسبية في ترددها (وليس من الضروري أن يتضمن كل حقل جميع هذه الأنواع)[10] بل قد يحوي علاقة منها دون الأخرى.

---

[8] ينظر في موضوع معايير الحقل الدلالي بحث (المجال الدلالي بين كتب الألفاظ والنظرية الدلالية الحديثة)، الدكتور علي زوين، مجلة أفاق عربية، العراق، ع1 (1992): 78 . 79.

[9] ينظر في معاني هذه العلاقات، علم الدلالة: 98 . 106، والمجال الدلالي: 76.

وفي ضوء هذه العلاقات يتكون المجال الدلالي لأي مصطلح عام شامل أو ما أسماه أصحاب النظرية (الكلمة الغطاء) أو الكلمة الرئيسية التي تضم (كل الكلمات التي لها بتلك الكلمة علاقة ما، سواء أكانت علاقة ترادف أو تضاد أو تقابل الجزء من الكل، والكل من الجزء).[11]

ج . المقاربة

من أهم خصائص الحقول الدلالية (أنها تقسم إلى أقسام أو تصنيفات، كل حقل منها يحوي مجموعته التي تخصه. ثم تدخل تحت كل قسم من الأقسام أقسام اصغر تتفرع عن الأقسام الكبيرة).[12]

هذه السمة سمحت للباحث بتقسيم ألفاظ الموت في القرآن الكريم إلى محاور كبيرة تضم تحتها محاور أصغر وكل محور منها يمثل شكلا من أشكال الخطاب القرآني المشكل لكتاب الموت. بمعنى أن كل محور منها يمثل طريقة خاصة تعبر عن ماهية الموت أو الهلاك بأسلوبها اللغوي البلاغي الدلالي الخاص.

وقد اتخذ البحث في تحليله لنص الخطاب القرآني للموت عدة إجراءات نابعة من نظرية الحقول الدلالي وهي:

1. استقراء ألفاظ الموت من النص القرآني، معتمدا في ذلك على دلالة الألفاظ المعجمية أولا وارتباطها بماهية الموت عامة، ثم السياق والاستعمال القرآني للألفاظ والذي ضم كثيرا من الألفاظ إلى حقل الموت الدلالي على الرغم من بعد معناها الأساسي عنه.
2. تصنيف الألفاظ المستقرأة إلى مجموعات دلالية مترابطة الخصائص، كل مجموعة تمثل شكلية خاصة من أشكال خطاب الموت القرآني.
3. ترتيب الألفاظ داخل كل محور حسب المعايير المقتبسة من النظرية.
4. تحليل دلالات الألفاظ الأساسية في كل محور والكشف عن العلاقات التي تربط الألفاظ داخل كل محور وصلتها بالكلمة الأساسية في المحور نفسه.

---

[10] مبادئ اللسانيات: 305.
[11] الأسلوبية والأسلوب: 150.
[12] علم الدلالة دراسة وتطبيقاً، الدكتورة نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قاريونس . بنغازي، ط1 (1995): 117.

أما عن اختيار (كتاب الموت) أنموذجا للنص القرآني موضع الدرس فله أسبابه المنهجية، ذلك إن حقل ألفاظ الموت الدلالي يحوي ألفاظا كثيرة شكلت أساليب بارزة في رسم ماهيته الموت وصور وأشكال التعبير عنه، كما أن طبيعة واقعة الموت الغريبة غير المحوسة والمفجعة في الوقت نفسه جعل الخطاب القرآني المشكل له يتخذ أشكالاً عدة في التعبير عن هذه الواقعة لتقريبها للذهان تارة، ولتخفيف وقعها على النفوس تارة أخرى، ولتجسيدها وتصويرها بصور محسوسة تقرب حقيقتها إلى عقول المخاطبين بالنص القرآني.

ثانياً. القسم التطبيقي

تشكل لغة كتاب الموت القرآني مجموعة كبيرة من الآيات التي تشتمل على ألفاظ ذات دلالة على انتهاء الأجل موتا أو هلاكا، وبدلالة معجمية أو سياقية بوصفه حدثا حقيقيا، أو مجازيا بوصفه صفة معنوية ذات إيحاءات مقصودة. كما أن الألفاظ تختلف في قوة دلالتها عن انتهاء الأجل وشكلية هذه الانتهاء بحسب دلالة اللفظة وارتباطها بماهية الموت فضلا عن الاستخدام القرآني لهذه الألفاظ مما يجعلها اشد التصاقا بتلك الماهية.

إن الألفاظ طريقة التعبير الأساسية في كتاب الموت القرآني مع اختلاف دلالة هذه الألفاظ من أسلوب لآخر، فهناك ألفاظ لا تتجاوز حدود الدلالة على انتهاء الأجل الطبيعي الفطري المسلم به تبعا لقانون الله في خلقه، وهناك ألفاظ بدلالة انتهاء الأجل بالهلاك بقتل أو بغيره، أي أنها قد تمثل شكلا للموت أو لا تمثل ذلك، غير أنها لا تعبر عن موت طبيعي، بل أن دلالة الموت تحصل بفعل الله سبحانه وتعالى، ويكون له سبب خارجي إنسان أو طبيعة. كما أن هناك فضلاً عن الألفاظ التي بدلالة انتهاء الأجل بوصفها مفردات، ترد انساق بيانيه تصويرية تحيل على الموت، وهناك أيضا أسماء وأماكن تمثل رموزا للموت، وكل هذه الأساليب تشكل كتاب الموت القرآني وتبني لغته.

إن الاعتماد على منهجية استخدام الحقول الدلالية في مقاربة كتاب الموت القرآني، يكشف لنا عن محاور دلالية كل محور منها يمثل شكلا من أشكال خطاب

الموت في القرآن الكريم، يمكن تقسيمها إلى مستويين دلالين تنضوي تحتهما كل المحاور، ويوضحها المخطط الآتي:[13]

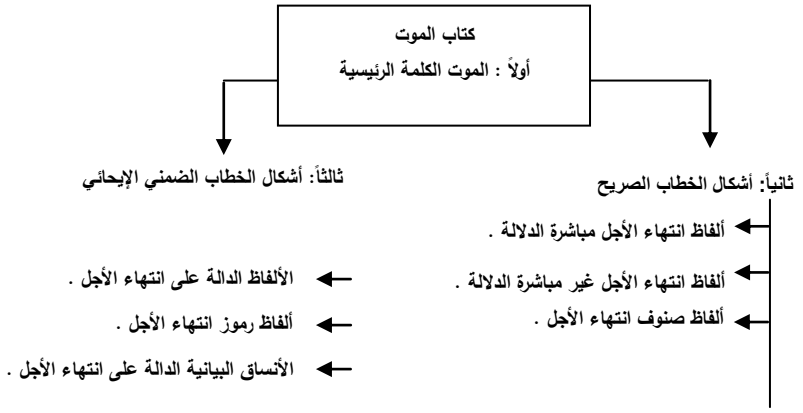

هذه المحاور تمثل دلالات ألفاظ كتاب الموت القرآني التي سنبدأ بتحليل سياقاتها في الصفات الآتية.

أولاً. الموت، الكلمة الرئيسية (الغطاء)

يمثل لفظ الموت الكلمة الرئيسية لكل المحاور المشكلة لكتاب الموت القرآني الدال على انتهاء الأجل بكل أشكاله. إن دلالة لفظ الموت تجمع لها كل دلالات المحاور

---

[13] اعتمدت في استظهار دلالات ألفاظ كتاب الموت القرآني على مجالات وقوعها في القرآن الكريم مستفيداً من بعض الدراسات المشابهة في مثل:

1. الموضوعية البنوية – دراسة في شعر السياب، الدكتور عبد الكريم حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت . لبنان، ط1 (1983): 99 – 175 – 229.
2. البنيات الدالة في شعر أمل دنقل، عبد السلام المساوي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، المغرب (1994): 374 – 375.
3. تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي . المغرب ط1 (1985): 256 . 257.
4. الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي، لطيف محمد حسن، رسالة ماجستير في اللغة العربية، كلية الآداب، العراق (1989): 105 – 131.

بل وتكتسب الألفاظ داخل المحاور دلالتها داخل خطاب الموت من ارتباط دلالتها بماهية الموت ودلالته المركزية الممثلة لانتهاء الأجل.

جاء لفظ الموت بدلالته المضادة للحياة مائة وخمساً وستين مرة[14]، وهو يعد الأكثر ترددا من بين كل ألفاظ كتاب الموت، فضلا عن تنوع دلالي يمكن أن نؤشر له الدلالات الآتية:[15]

- ❖ انتهاء الأجل الطبيعي، وهو القانون المسلم به في موت معظم الناس، كما في قوله تعالى:﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:2) ولأن الموت بهذه الدلالة القانون الأكثر شيوعا بين بني البشر قدمه تعالى على القتل في خطابه لبني البشر فقال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران:158).
- ❖ انتهاء الأجل بالهلاك، والذي يمثل شكلا للموت، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:56). والكلام هنا عن بني إسرائيل حين إصابتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله تعالى بقدرته، ودلالة الموت على الهلاك أقل الدلالات وروداً في سياقاته، ولعل ارتباط لفظ الموت بانتهاء الأجل الطبيعي جعله أقل تحركا في مجال الدلالة على انتهاء الأجل بصورة الهلاك.
- ❖ جاء لفظ الموت بدلالة حالة الاحتضار وما يسبق الموت من سكرات فقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:19). فسكرة الموت هنا ما يسبق الموت من حالة آحتضار، أي الوفاة في تعبير آخر للقرآن الكريم، وهي غمرات الموت الخاصة بالكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ (الأنعام:93).

---

[14] المعجم المفهرس، مطبعة النجف . العراق (د.ت): 792 – 794.

[15] ينظر في هذه الدلالات، الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي، تحقيق الدكتور عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (1975): 226 .227. المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفاني، الطبعة الميمنية مصر (1324 هـ): 494.

❖ جاء لفظ الموت تعبيرا عن فقدان الأرض مظاهر الحياة وانتهاء النبات، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ (الأعراف:57)، فالبلد الميت هنا وصف لموت الأرض وانقطاع النبات، وهو إطلاق مجازي ينظر فيه وجه الشبه بين صفات الميت وصفات الأرض القاحلة من النبات والزرع.

❖ جاء لفظ الموت بدلالة معنوية مجازية انسحبت من مجال المحسوسات إلى مجال المدركات الذهنية المعبرة عن الكفر والشرك والنفاق، بعد هذه الصفات انتهاء لإنسانية الإنسان أولاً، وانتهاء للعهد الذي فطر الله الناس عليه حين قال لهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ (الأعراف:172) جاء الموت بهذه الدلالة المجازية المعنوية في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (الأنعام:122) فالميت هنا الكافر المشرك أو المنافق لأن سياق الآيات يتحدث عن الإيمان والكفر ولا مجال لاعتبار الحسيات هنا وجعل الألفاظ ذات دلالة حقيقة أولية.

ويكفي لتقرير هذه الحقيقة أن نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يّس: 69 . 70).

إن الآية تضع الحي مقابلاً للكافر مع إن المجال الدلالي للحياة يختلف عن مجال الكفر إلا أن البنية العميقة للآية تشير إلى إن الحياة هنا تعني الإيمان كما أن الكفر يعني الموت. ويمكن توضيح الفكرة بالمخطط الآتي:[16]

[16] ينظر التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة، عودة خليل أبو خليل، مكتبة المنار، الأردن ط1 (1985): 345.

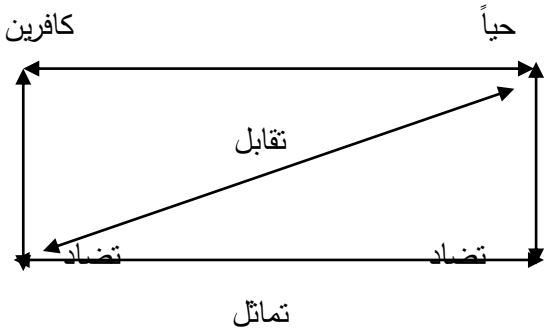

إن لفظ الموت بدلالاته المتنوعة هذه يرتبط مع باقي المحاور بعلاقات أبرزها علاقة الاشتمال لما في دلالته من شموليته تغطي دلالات ألفاظ المحاور كلها، أو بعلامة ترادف جزئي (كما في ألفاظ انتهاء الأجل مباشرة الدلالة) لأن كل الألفاظ لا بد أن تحمل جزءاً من معنى الموت بدلالاته المختلفة كما عرضناها في تحليلنا لتقلبات الدلالة المتنوعة له.

ثانيا. أشكال الخطاب الصريح

يتكون هذا الشكل الخطابي من الألفاظ التي تدل على انتهاء الأجل بشكل صريح وقوي الدلالة، سواء كانت الألفاظ مباشرة الدلالة أم غير مباشرة، مصورة لهيئة خاصة لانتهاء الأجل أم لم تكن كذلك. ويضم هذا الشكل التعبيري ثلاثة محاور دلالية هي:

- **ألفاظ انتهاء الأجل مباشرة الدلالة.**
- **ألفاظ انتهاء الأجل غير مباشرة الدلالة.**
- **ألفاظ صنوف انتهاء الأجل.**

أ. ألفاظ انتهاء الأجل مباشرة الدلالة

يضم هذا المحور الدلالي عدداً من ألفاظ انتهاء الأجل ذات التعبير مباشر الدلالة، سواء أكان هذا الموت يخص إنساناً أم حيواناً أو ما يمت إلى الطبيعة بصلة، وسواء أكان اللفظ ذا دلالة حسية حقيقية على الموت أو معنوية مجازية.

إن ألفاظ هذا المحور وردت في الخطاب القرآني بدلالة الموت أو الهلاك الفعلي الواقع، فضلاً عن أن معناها المعجمي يرتبط بهذه الدلالة الصريحة والمباشرة على الموت وتعد مركزية وأساسية بين المعاني التي يدل عليها اللفظ معجمياً أو سياقياً.

والألفاظ التي يضمها هذا المحور بحسب كثرة ترددها وشيوعها الكبير في خطاب الموت القرآني هي:

1 . الهلاك. 2 . الوفاة. 3 . القضاء. 4 . الردى. 5 . الزهق. 6 . السفك. 7. الهوى. 8 . الإبادة. 9 . الفناء. 10 . المنون.

ويمثل لفظ الهلاك اللفظ الأساسي في هذا المحور، لكثرة تردده وشيوع استخدامه للتعبير عن انتهاء الأجل بصورة غير طبيعية، فضلاً عن التنوع الدلالي الكبير لدلالة هذا اللفظ، إذ جاء لفظ الهلاك ثمان وستين مرة[17] وبثلاث دلالات يمكن أن نؤشرها على النحو الآتي:

1. جاء لفظ الهلاك بمنى الموت الحقيقي في أغلب مواضعه مع ملمح الذم والعنف وانقطاع اثر المهلك في السياقات التي جاء فيها[18] ، كقوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ (القصص:58)، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم:98). ولدلالة الهلاك على انقطاع أثر المهلك استعملها القرآن الكريم مع رجل الكلالة وهو الميت الذي لا ولد له ولا والد،[19] قال تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ﴾ (النساء:176)، واستعمله أيضاً مع بني الله يوسف . عليه السلام . دون أنبياء الله جميعاً، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ (غافر:34) وكلاهما لا عقب له من بعده.[20]

---

[17] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: 747 – 748.
[18] ينظر المفردات (هلك): 567.
[19] ينظر صفوة البيان لمعاني القرآن، الشيخ: محمد حسين مخلوف، شركة ذات السلاسل، الكويت ط3 (1987): 159.
[20] ينظر نحو منهجية جديدة في فهم القرآن،الدكتور أحمد الكبيسي، ماليزيا (1998): 202 – 203.

2. جاء لفظ الهلاك وصفاً لموت طبيعية بصورة عقابية من عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ (آل عمران:117).

3. جاء لفظ الهلاك بدلالته المجازية المتصلة بعالم المثل والمعنويات من كفر وشرك وضلال، قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:42)، قال الزمخشري: (استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام)[21]

أما باقي ألفاظ المحور فترتبط دلالتها بعلاقة ترادف جزئي مع لفظ الهلاك، ذلك لأن كل ألفاظ المحور تعبر مباشرة عن دلالة انتهاء الأجل غير الطبيعي مع ملمح الشدة والعذاب في هذا الهلاك، وملمح التدخل الخارجي لانتهاء الأجل في كل ألفاظ المحور، كما أنها تفترق بملامح دلالية لا يسمح مجال البحث بذكرها هنا.

ب . ألفاظ انتهاء الأجل غير مباشرة الدلالة

تتبنى لغة هذا المحور من ألفاظ بدلالة انتهاء الأجل ولكن بدلالة غير مباشرة، بمعنى أن اصلها المعجمي لا يدل على الموت في معناه الأساسي بل يتخذ اللفظ دلالات عديدة من بينها الموت ، فيعمد الخطاب القرآني إلى جزئية دلالته على الموت ويجعلها أساسية في كتاب الموت القرآني وإن لم تكن مركزية. وقد أشار أبو عبيدة إلى هذه الدلالة غير المباشرة لبعض الألفاظ ذات الاستخدام المتنوع الدلالات فقال عن لفظ (السبيل) (يقال هو السبيل وهي السبيل، وله مواضع أحدها الموت، يقال: سلك سبيل من كان قبله).[22]

أي أن دلالة انتهاء الأجل المستنبطة من ألفاظ هذا المحور يتآزر في تشكيلها، اصل اللفظ المعجمي الذي يرتبط بماهية الموت في تقلباته المتنوعة، ثم السياق القرآني الذي وردت فيه اللفظة بما فيه من قرائن توجه دلالة الألفاظ نحو دلالة انتهاء

[21] الكشاف، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت) 2: 224.

[22] مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تحقيق الدكتور محمد فؤاد سزكين، مصر (د. ت) 2 : 114.

الأجل بالموت أو الهلاك. إلا أن التعبير عن الموت يبقى صريحاً واضحاً من غير إيحاء أو رمز.

والألفاظ التي تمثل هذا المحور حسب كثرة ترددها هي:

1 . الأجل. 2 . الحين. 3 . الأخذ. 4 . البعد. 5 . الإحاطة. 6 . الذهاب. 7 . القطع. 8 . الجثوم. 9 . الخمود. 10 . .القصم

ولا يمكن أن نحدد بدقة متناهية الكلمة الأساسية في هذا المحور، ذلك إن كل ألفاظ المحور ذات دلالات متقاربة وقليلة التنوع الدلالي، ألا أن معيار كثرة الشيوع والتردد يسوغ لنا عد ألفاظ (الأجل، الحين . الأخذ، البعد) هي الألفاظ الأساسية في هذا المحور وغيرها تعد هامشية.

أما العلاقات داخل هذا المحور فجزئية ومتنوعة، بمعنى أنها تقوم بين بعض الألفاظ في جوانب ولا تقوم بجوانب أخرى فمثلاً، الأجل يدل على موت طبيعي في أغلب مواضعه كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ (الأنعام:2)، بينما تدل ألفاظ من مثل القطع كقوله تعالى:﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (آل عمران:127)، أو الإحاطة (يونس: 22)، أو القصم (الأنبياء: 11)، تدل على انتهاء أجل بهلاك وعذاب فالعلاقة بينها وبين الأجل تضاد متدرج أي غير الحاد.

بينما ترتبط ألفاظ (الأجل، الحين، الذهاب) بعلاقة ترادف جزئي، كذلك الجثوم والخمود بينهما علاقة ترادف جزئي لما بين هذه الألفاظ من ملامح دلالية مشتركية وافتراق في ملامح أخرى تشكل ضلال المعنى وإيحاءاته.

ج . ألفاظ صنوف انتهاء الأجل

يتشكل هذا المحور الدلالي ذو الدلالة الصريحة على انتهاء الأجل من ألفاظ تتصف بأنها ذات دلالة مباشرة على الموت أو الهلاك مع تحديد لصورة هذا الموت والهلاك وأسلوبه، ذلك إن كل ألفاظ هذا المحور تدل على موت يجري بفعل فاعل، أي أنه ليس موتاً طبيعياً بل قتلاً على اختلاف شكلية هذا القتل.

والألفاظ التي تنتمي إلى هذا المحور حسب كثرة ترددها هي:

1 . القتل. 2 . الغرق. 3 . الصعيق. 4 . الذبح. 5 . الرجم. 6 . الصلب. 7 . العقر. 8 . الحرق. 9 . الحس.

يمثل لفظ القتل الكلمة الأساسية في هذا المحور لترديده الكبير والبالغ سبعاً وسبعين مرة،[23] فضلاً عن إن دلالة القتل تضم إليها كل الدلالات التي تحملها باقي ألفاظ المحور على اختلاف شكليتها، فالقتل كما يقول أبو هلال العسكري (هو نقض البنية الحيوانية ولا يقال له قتل في اكثر الأحوال إلا إذا كان من فعل ادمي).[24]

أي أن القتل يحدث بفعل فاعل وبأشكال مختلفة من حرق، وصلب، ورجم وغيرها من دلالات هذا المحور.

جاء القتل بدلالته على انتهاء الأجل حاملا ثلاثة معاني هي:

- القتل بمعناه اللغوي الأصلي الذي هو إزهاق الروح بفعل فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ (الأنعام:151) وهذا المعنى للقتل منهي عنه شرعاً وله عقوبة القصاص والدية.
- استعمل لفظ القتل بدلالة عبادية سامية تضاد الدلالة الأولى كقوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران:169).
- جاء لفظ القتل بصيغة الماضي المبني للمجهول (قتل) بدلالة معنوية تدل على اللعن والذم، كقوله تعالى: ﴿قتل الخراصون. الذين هم في غمرة ساهون﴾ (الذريات:11).

أما العلاقات المشكلة لهذا المحور فتمثلها علاقة الاشتمال بين لفظ القتل وباقي ألفاظ المحور كما وضحنا قبل قليل، فضلا عن علاقة التنافر بين دلالة لفظة وأخرى فالغرق مثلاً ينفي الذبح والرجم ينفي الصلب وهكذا بقية ألفاظ المحور دلالة كل واحدة منها تنفي الأخرى.

---

[23] المعجم المفهرس: 533 – 536.

[24] الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط3 (1979): 97.

ثالثا. أشكال الخطاب الضمني (الإيحائي)[25]

هذا الشكل من تشكيلات خطاب الموت يرتكز على ثلاثة مستويات تعبيرية، أولها الترابط الدلالي وثانيها الرمز وثالثها النسق البياني، وكل هذه المستويات يجمعها شكل التعبير الضمني الإيحائي الدال على انتهاء الجل، ونقصد بالإيحاء الابتعاد عن استعمال الألفاظ ذات الدلالة الصريحة على الموت والتي تحيل على الموت مباشرة على اختلاف مستوياتها كما مر بنا.

ولعل السبب الأساسي في استعمال هذا الشكل من الخطاب – اقصد الضمني الإيحائي – أنه ورد بمجمله على ألسنة الكافرين والمشركين المنكرين للبعث، وهم أشد الناس خوفاً من الموت فيلجئون إلى هذه الأساليب الإيحائية للتعبير عن هذه الحقيقة التي ترفضها نفوسهم وتحاول الهرب من وقعها المحتم.

هذا الشكل الخطابي يتخذ ثلاثة مستويات تعبيرية هي:

- ❖ محور الألفاظ الدالة على انتهاء الأجل.
- ❖ محور رموز انتهاء الأجل.
- ❖ محور الأنساق البيانية الدالة على انتهاء الأجل.

ونحاول الآن تحليل دلالات كل منها.

أ . محور الألفاظ الدالة على انتهاء الأجل

يتشكل هذا المحور الدلالي من الألفاظ التي تتصل بموت الإنسان والطبيعة (بتعبير مجازي).

الألفاظ المتصلة بانتهاء أجل الإنسان ذات دلالة إيحائية إشارية، منها ما يمكن أن نسميه – لوازم الميت – ومنها ما يصور الميت نفسه، وهي على الترتيب الزمني:

1. التابوت.
2. القبر.
3. الجدث.

[25] ينظر في مسوغات هذه التسمية علم الدلالة: 40 – 41. علم الدلالة دراسة وتطبيقاً: 41.

4. التراب.
5. العظام.
6. الرميم.
7. الرفات.

أما الألفاظ التي تتصل بانتهاء اجل طبيعة من نبات وأرض فهي:

1. الجرز.
2. الزلق.
3. الهشيم.
4. الحطام.
5. العصف.
6. الغثاء.

وسنكتفي بدراسة ما يتعلق بموت الإنسان لإيضاح كيفية تشكيل هذا المحور لخطاب الموت.

تحليل دلالات محور الألفاظ الدالة على موت الإنسان تطلب اتباع مفهوم علاقة الاشتمال النابعة من نظرية الحقول الدلالية، من نوع يطلق عليه (الجزئيات المتداخلة)، (ويعني ذلك مجموعة الألفاظ التي كل منها متضمن فيما بعده مثل، ثانية، دقيقة، ساعة، يوم، أسبوع، شهر، سنة).[26]

ذلك إن دلالات ألفاظ هذا المحور متداخلة مع بعضها بمعنى أن كل واحدة منها قبل الأخرى وكل واحدة تشير إلى التي قبلها ويتضمنها ما بعدها.

(التابوت) هذا الصندوق الذي يحوي الميت يدل على الموت بطريق الترابط الذهني بين ماهية التابوت واحتوائه الميت حتما، قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ (البقرة:248).

يأتي بعده (القبر) الذي هو (مدفن الإنسان)[27] فدلالته تحوي دلالة التابوت حتما، قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (التوبة: 84).

---

[26] علم الدلالة: 100.

[27] تهذيب اللغة، الأزهري، تحقيق: مجموعة من المحققين، الدار المصرية للتأليف والترجمة 9 : 138.

وقد جاء القبر بدلاله مجازية معنوية تعني الكافر والضال عن الهدى،[28] قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر: 22)، وقريب من دلالة القبر دلالة الجدث الذي هو مدفن الإنسان أيضاً مع ملمح دلالي يشير إلى قدم عهد هذه القبور وبقاءها زمناً طويلاً تحت الأقدام، مما سوغ استعمال دلالاتها في سياق الوعيد والإنذار للمكذبين بيوم الدين، يقول تعالى: ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (القمر:7). هذه الألفاظ الثلاثة تعد دلالتها خارجة عن الموت نفسه إلا أنها جزء من ماهيته العامة. أما الألفاظ الأربعة الباقية وهي التراب والعظام والرميم والرفات فتمثل جزءاً من الموت نفسه وان كانت لا تشير إليه صراحة بل من خلال استعمالها السياقي.

جاء لفظا (التراب والعظام) مترابطين في مواضع كقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ (المؤمنون:35).

والتلازم هنا يشير إلى أول مراحل الميت في القبر حين يبدأ الجسد بالتحول شيئاً فشيئاً يأتي بعدها ذكر لفظ (العظام) مفرد كقوله تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ (النازعات:11) حين تبدأ العظام الأشد صلابة بالتحلل والتفتت بعد ان يتقدم الزمن بها كما يشير الى ذلك استعمال لفظ (الرميم) وهو دال على العظام البالية القديمة التي مر عليها زمن طويل وهي فاقدة الحياة كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يّس:78).

وبعد ذلك تبدأ بالتفتت والتكسر والتناثر، هذا ما دل عليه استعمال لفظ الرفات،كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ (الإسراء:49)، ثم يأتي ذكر لفظ (التراب) مفرداً كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (الرعد:5)، ودلالة التراب هنا تختلف عن دلالته حين جمع مع العظام في أول المراحل، إذ يعني هنا تحول كل الميت إلى تراب يختلط بتراب الأرض ولا يبقى منه شيء أبداً.

---

[28] تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للطباعة والنشر، تونس (198) 22 : 295.

هكذا نجد أن هذه الألفاظ ذات دلالة إيحائية إشارية ترابطية إلى معنى الموت يستلزم ذكرها في سياقات خاصة . كما هي حالتها في كتاب الموت القرآني . ذكر معنى الموت ورسم صورته في الذهن.

ب . محور ألفاظ رموز انتهاء الأجل

يتشكل هذا المحور من ألفاظ تمثل شخصيات وأماكن تاريخية أضحت تمثل رموزاً للموت والهلاك في القرآن الكريم. واعني بالرمز هنا اعتماد الدال في دلالته على مدلولين أو اكثر ومن ثم يسمح لنا هذا الدال في الانتقال من مدلوله الأول المتعارف منه إلى مدلول ثان هو الغاية من التعبير.[29]

أما العلاقة التي تقوم بين الرمز والمرموز إليه فتختلف بين علاقة المجاورة أو المشابهة حسب طبيعة الترابط بين دلالة الرمز وما يرمز إليه. والملاحظ أن العلاقة التي بين ألفاظ هذا المحور وما ترمز إليه هي المشابهة بين دلالة الرمز وما يرمز إليه من حيث طبيعة انتهاء، كل منهما وعاقبتها الأخيرة.

إن ألفاظ من مثل فرعون وقارون – وقوم نوح وقوم تبع و أصحاب الرس و أصحاب الأيكة، وأماكن من مثل قريات لوط ومنازل عاد وثمود وأزماناً خاصة معينة. هذه الأسماء إذا تتبعنا سياقات ورودها في القرآن الكريم نجد أننا نقف أمام عدد من الرموز الدالة على الهلاك، وتنضم إلى الألفاظ المشكلة لكتاب الموت، فدلالتها (مكثفة وغنية وتحمل قيماً مهمة في المجتمع والنفس والفكر، وبهذا تفارق جزئيتها وفرديتها لتصبح عامة).[30]

هذا الافتراق عن الذاتية والشخصية في التعبير عن مسمياتها هو بالذات ما جعلها تصبح رموزاً للموت والهلاك، ذلك من خلال كثرة ترددها في خطاب الموت القرآني وحملها لدلالة مركزية أساسية متمثلة بعقاب الكافرين الظالمين بالهلاك الدال على قدرة تعالى. ولنقرأ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ . وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق:12 .14).

---

[29] ينظر الصورة الشعرية في الكتابة الفنية، د. صبحي البستاني، دار الفكر اللبناني، ط1 (1986) : 83.

[30] جماليات الأسلوب الصورة الفنية في الأدب العربي، الدكتور فايز الداية، دار الفكر المعاصر، لبنان ط2 (1990): 177.

إن توعد الكافرين المشركين في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهلاك والعقاب لم يأت بألفاظ صريحة في هذا السياق، بل لجأ القرآن الكريم إلى الذاكرة القديمة من خلال أسماء تدل على مسميات معروفة يرمز من خلالها إلى حتمية هلاك المشركين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، كما كان مصير من شابههم من الأقوام السابقة والشخوص القديمة، إن هذه المسميات تمثل رموزاً تاريخية محفورة في ذاكرة البشرية والعودة إليها يمثل استعانة بالماضي لتأكيد حقيقة الحاضر من وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر ووعيد للمشركين والكافرين بالهلاك والهزيمة.

هذا الأسلوب الرمزي الإيحائي في تشكيل خطاب الموت نجده في آيات أخرى من مثل:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج:17 . 20).

هذه الآيات تربط بين رمز فرعون وثمود وتجعلهم حديثا على مر الزمن وبين المكذبين بالقرآن والرسول إذ نهاية كل منهما هي واحدة الهلاك عقابا على فعلهم في الدنيا. هذا الاستخدام الرمزي لهذه الألفاظ لا نخطئه في كثير من المواضع التي ترد فيها هذه الألفاظ، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن نقرأ قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (صّ:14).

القرآن هنا لا يقول لنا أن المكذبين في زمن رسول الله سيهلكون عقابا لهم، بل يكتفي بترديد أسماء وأماكن تمثل رمزا للهلاك عقابا، ليربط الذهن بين نهاية هذه الأسماء وما سيجري لمن يكذب برسول الله صلى الله عليه وسلم فالتشابه واضح بين كل منهما.

إن القرآن بتركيزه في كتاب الموت على هذه الرموز يعتمد على المشابهة بين مصير هذه الرموز ومصير من يكذب بالقرآن والرسول، والتي يستطيع الذهن تحقيقها من خلال تردد لا يزال يتكرر عن هلاك هذه الأسماء، بحيث يصبح الترابط الرمزي الإيحائي بينها وبين مدلول إنهاء الأجل بالهلاك لا يحتاج إلى جهد كبير لقراءته فهم أبعاده.

ج . محور الأنساق البيانية الدالة على انتهاء الأجل

هذا المحور الدلالي يختلف عن كل المحاور المشكلة لكتاب الموت القرآني، ذلك إنه ينبني من الأنساق البيانية المتنوعة، والمشكلة من ترابط الألفاظ في سياقات ذات دلالة تصويرية على انتهاء الأجل، أي أنها تمثل الموت بطريقة بيانية صورية تعتمد الكناية والاستعارة والتشخيص و التجسم أدوات له لرسم صورة الموت وتحقيق دلالته.

نقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النحل:26).

هذه الآية تصوير لحالات استئصال الأمم الكافرة بالهلاك من خلال (تشبه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة، بهيئة قوم أقاموا بنياناً عظيماً ذا دعائم وأووا إليه فاستأصله الله من القواعد فخر سقف البناء دفعه على أصحابه فهلكوا جميعا، فهذا نوع من أبدع الاستعارات التمثيلية).[31]

وفي موضع آخر من كتاب الموت يستعمل القرآن الكريم الأسلوب الكنائي لتمثيل حالة انتهاء الأجل بالموت فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (آل عمران:90).

فالتعبير بـ ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أسلوب كنائي يراد به الميتون لأن الميتين وحدهم الذين لا تقبل توبتهم.[32]

ومن الصور البصرية التي عبر فيها القرآن عن هلاك الأقوام، قوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:145).

فالإشارة إلى الهلاك جاءت من خلال صورة بصرية تنظر لديار الأقوام الكافرة المهلكة هي ومن كان فيها والتي يمر عليها المسلمون في ترحالهم فيتعظون بمصير من قبلهم. ومن مثل هذه الأنساق البيانية كثير في القرآن ويكفي أن نقرأ هذه الآيات:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ:7).

---

[31] التحرير والتنوير 14 : 135.

[32] ينظر الكشاف 1 : 90، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي 4 : 130، دار الفكر ط2 (د.ت).

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة:10).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ (مريم:5).

أنها كلها تمثل انتهاء الأجل بالموت أو الهلاك بطريقة تصويرية بيانية، ليتشكل لنا ما يمكن ان نسميه حقل الأنساق البيانية الدالة على الموت.

الخاتمة

تبين من عرضنا للمحاور المشكلة لكتاب الموت القرآني أنه يتألف من ستة محاور تتوزع على شكلين من أشكال الخطاب، الصريح والإيحائي وكل شكل يتألف من ثلاثة محاور، وكل محور له خصائصه المميزة المتصلة بألفاظه وسياقاته الخاصة.

وقد تنوعت دلالات الألفاظ تبعا لتنوع السياقات التي جاءت فيها، فحمل اللفظ نفسه دلالة حسية وأخرى معنوية من مثل (الموت الهلاك، القبر). أما أهم العلاقات التي ظهرت في المحاور فتتمثل بعلاقة الاشتمال والتنافر والترادف الجزئي، هذا الترادف الذي اثبت البحث عدم وجوده بشكله التام من خلال التقسيمات التي اعتمدت على نظرية الحقول الدلالية واختلاف دلالات الألفاظ حسب المحاور التي تنتمي لها، والسياقات التي جاءت فيها.

إن استثمار معطيات النظرية اثبت جدواه في مقاربة النص القرآني، حيث يمكن من خلال جمع ألفاظ الموضوع الواحد وتقسيمها حسب دلالاتها، معرفة أبعاد الموضوع وطرائق التعبير عنه، والأنساق البيانية الممثلة له. كما كان للألفاظ المتحولة إلى رموز للموت دور في تشكيل كتاب الموت وتحقيق دلالاته. كل هذه الأشكال التعبيرية مثلت كتاب الموت وحققت دلالاته، ورسمت صوره وأساليبه البيانية.

وتبقى هذه الكلمات محاولة متواضعة للاقتراب من القرآن الكريم، عسى الله أن يكتبها في ميزان حسناتي انه سميع الدعاء.